الكتاب الجديد

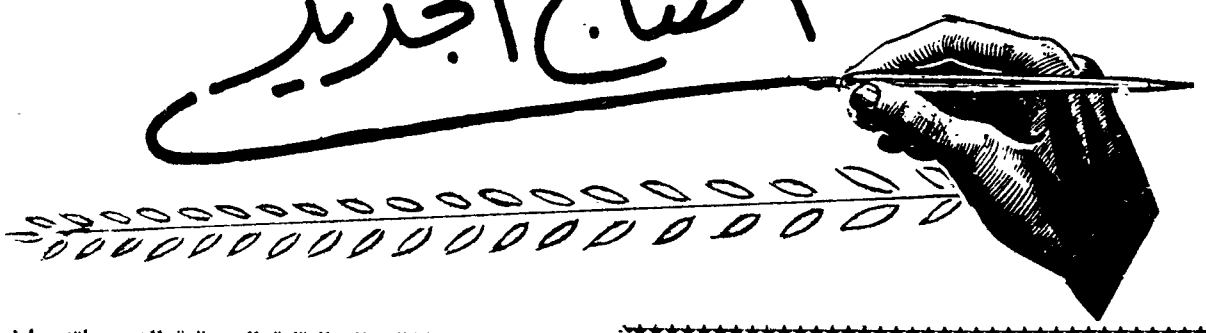

سبعون .. حكاية عمر

بقلم ميخائيل نعيمة

منشورات دار صادر ـ دار بيروت ٢٨٥ ص.

قد يكون من نعم الله على الادب العربي انه مد بعمر الاستاذ نعيمه وألهمه كتابة سيرته بنفسه لتكسب المكتبة العربية سفرا نفسيا يتوج المجموعة الرائعة من الكتب التي قدمها حتى الان ، وليلقي في الوقت نفسه ضوءا كافيا على حركة ادبية كان لها اعظم الاثر في توجيه ادبنا العربي المعاصر ، واعني بها الرابطة القلمية .

والكتاب الذي بين ايدينا ـ سبعون .. حكاية عمر ـ يؤرخ للمرحلة الاولى من ذلك العمر الحافل ، يتحدث فيه الاستاذ ميخائيل نعيمة عن طفولته في بسكنتا ،ودراسته الاولية في مسقط رأسه ، ثم فيمدرسة الناصرة ، ثم دراسته العالية في بولتافا .

وما من شك في حديث المرء عن طفولته بعد مرور سبعين عاما لا يمكن ان يكون شاملا ومفصلا لان معظم الحوادث يلتهمها الزمن ، ويغيبها النسيان ، ولا يبقى في الذاكرة الا بعض الخطوط البارزة والحوادث غير العادية . الا ان الاستاذ نعيمة استطاع بهذا القليل الذي لا يزال يعيه ان يقدم لنا صورة باهرة عن طفولته في كنف ام يبدو انها كانت تسبق جيلها بالتفكير فتقول لزوجها : « لست اريد لاولادنا ان يرثوا المهنة التي ورثتها عن والدك ، وان يكون حظهم من دنياهم عاثرا كحظك»» وفي بيت قروي هادىء استطاع اهله بجدهم وعرقهم ان يوفروا الرغيف للاطفال . وهذه الحياة المستقرة تقل فيها الاحداث غير العادية، بعكس طفولة غوركي المشردة مثلا ، والمليئة باحداث دونها الكاتب الروسي العظيم في ثلاثة مجلدات . وكان من الطبيعي ان يقفز المؤلف فوق هذه الوقائع الهاربة من ذاكرته او التي لا يرى فائدة من ذكرها ، وان يلح على بعض الحوادث الهامة التي تساعد في ابراز صورة شبه كاملة لهذه الطفولة .

ومن هذه الاشياء التي اعارها المؤلف شيئا من اهتمامه بيته الذي وصفه وصفا مفصلا فاذا به لا يختلف عن معظم بيوت الفلاحين اللبنانيين انذاك ، ثم الشخروب الذي ادخله المؤلف في تاريخ الادب كمصدر من مصادر الهامه وعامل قوي من العوامل التي أثرت في تفكيره . ثم تلك الطفولة اللاهية المنغلقة على مفاهيم الخير والشر والتي جعلته لا يتحرج من المشاركة في تعذيب الضباب والضفادع والكلاب والعصافير ، او تهيب به ان يقلد المشعوذين فيدخل في اذنه حبة حمص تسبب له ولذويه الكثير من الالام . وكذلك تلك العقلية الصبيانية التي جعلته يبارز رفيقه في الدوس على الخيال وكانت حصيلتها سقطة مريعة عن علو سبعة أمتار وحشرا في جلد خروف ثلاثة ايام .

وبقدر ما اقتصد الاستاذ نعيمه في ذكر الخصوصيات اسهب في ذكر الحوادث التي تساعدنا على فهم كيفية تكوين شخصيته الادبية والاجتماعية ، وكيف تدرجت نظرته المثالية الى الحياة ، من فرض الصمت على نفسه في الناصرة ، الى مغالبة البهيمية في طبيعته كشاب مع احدى فتيات الجمناز التي عرضته لتجربة قاسية لا ينتصر فيها سوى الانبياء ومن يتخلقون باخلاقهم .

وهذه حادثة قد يرى فيها الكثيرون بعض المغالاة ، وخصوصا لانهم يعيشون في عصرنا هذا الذي تدهورت فيه الاخلاق وانحطت القيم . ويستحيل في الواقع ان يصدق الناس بعث حادثة يوسف الصديق مع امرأة العزيز لان عصر الانبياء قد ولى . ولكنني، رغم اعتقادي بانها حادثة غير عادية ومنافية للطبيعة البشرية ، لا يسعني الا تصديقها من مفكر الهمه الله التعلق بالمثالية منذ بدأ يعي مفهوم الخير والشر فملأ منها كتبه شابا وكهلا ولا يزال الى اليوم من اكبر دعاتها .

ولا يضير هذه المثالية ان تنهزم مرة امام اغراء المرأة الاخرى «فاريا» فللمقاومة الانسانية حدود تقف عندها ، والانسان ليس الها ولكنه من لحم ودم ، وفي نفسيته ميول ونزوات ان استطاع ان يخفف من حدتها بالارادة والاخلاق القويمة والزاجر الديني فلا يمكن الا ان تفتح لنفسها طريقا او منطلقا خلال الاسوار والسدود التي اقامها من تربيته واخلاقه اذا تجاوز الاغراء حدود الطاقة .

وفي الكتاب نتف انتقاها المؤلف من مذكراته في مدرسة بولتافا .

صدر حديثا

القومية والانسانية

للدكتور عبدالله عبدالدائم

(طبعة ثانية)

دار الاداب ـ بيروت

وكم كنا نحب ان تكون هذه المذكرات بالعربية لا بالروسية ، وذلك لنرى نسقا من اسلوبه الانشائي آنذاك ومن طريقته في التعبير كما فعل في تلك الرسالة التي ارسلها الى اهله من الناصرة وسجل فيها انجرافه ببلاغة الاقدمين واستيلاءه على تعابيرهم من امثال قوله : « احر من جمر الغضا ، وضحك الصبح عن ناجذيه ، وخافية الغراب الاسحم .» الا ان تفكيره ظهر واضحا في هذه المذكرات ، فهو تفكير واع يندر ان يصدر عن غلام لم يبلغ العشرين ، ويدل على موهبة مبكرة انتهت به الى المركز الشامخ الذي يحتله اليوم في عالم القلم .

الا ان هنالك افكارا تألقت بين حوادث الكتاب لا اعتقد انها من عمل السبعين لما فيها من نظر صائب وتحليل دقيق لبعض المشاكل . من ذلك تعليقه على طرد طالبين من مدرسة الناصرة بسبب علاقة جنسية شاذة ، وكذلك رأيه في المدارس ومناهجها وطرق التدريس فيها ، فهو رأي لا يصدر الا عن كبار المربين ، كقوله : « اي ، انها لجريمة ان يحيا الطالب في مدرسته حياة بينها وبين الحياة خارج المدرسة هوة سحيقة. فلا عجب اذ ذاك ان تراه يخرج من المدرسة فلا يتمكن في الحال من مد جسر يصل الحياتين ، فيمضي يعاني الامرين في التفتيش عن رزقه وعن مكانه في الارض .. » فهذا رأي كما ترى يدل على كثير من التفهم لمشكلة لا نزال نعاني مساوئها حتى الان ولا يمكن لتفكير ابن السادسة عشرة ان يرتفع الى هذا المستوى .

اما تفتح عقليته الباكر على مفارقات النظام الاجتماعي فقد ورد البرهان عليه في عدة اماكن من الكتاب ، ومن ذلك تعليق له عند رؤيته بعض الفلاحين الروس مبكرين الى عملهم في الحقول : « لقد كنا نمشي بأرجل فكك التعب مفاصلها ، واجفان تكاد تلتصق بعضها ببعض من فرط ما بها من نعاس . كنا نمشي في جنازة ليل قتلناه رقصا وثرثرة ومجونا ، وسنقتل النهار المولود منه نوما وتراخيا وتكاسلا ، وكانوا يمشون ـ الفلاحون ـ وفي مشيتهم عزم الارض ، وفي عيونهم امل النهار الجديد ، في ايديهم المفاتيح لبركات الحياة وخيراتها . وكانوا يحيوننا كما لو كنا نحن ذوي الحق في بركات الحياة وخيراتها وكانوا هم المتطفلين . يا له من نظام اعوج !. »

واما التعبير البديع فما عودنا الاستاذ نعيمة ان يكون مسفا في اية عبارة من عباراته . الا ان في هذا الكتاب شطحات بلغت منتهى الروعة، منها وصفه الرائع للشخروب ، وفصل « الكشة » على لبنان ، وساعة وداع المهاجر ، تعريفه للهجرة الذي يقول فيه : « انها اعشاش تبعثر ، وارحام تقطع ، وافئدة تفتتت ، واكباد تمزق وما من معز لها الا الامل ».

ونحن اذ نكتفي بهذا القدر من التعليق ، نتمنى على الله ان يمد بعمر الاستاذ الكبير ليتم هذه السلسلة من المذكرات ويتبعها بـ « ثمانون ، وتسعون ، ومئة » الى ما شاءت له العناية وشاء لنا الحظ ان يبقى .

بهيج شعبان

آخر الطريق

تأليف امينة السعيد

قصة مطولة ـ سلسلة كتاب الهلال العدد ٩٥ ـ ٢٢٠ صفحة

تحتل السيدة امينة السعيد ، في عالم الصحافة الاجتماعية والرواية الادبية المعاصرة ، منزلتها المرموقة التي دانت لها بعد جهد وجد ومعاناة ادبية اساسها رهافة الحس ، وذكاء القلب ، وصواب النظرة تنظرها الى المشكلات الاجتماعية التي اخذت على عاتقها حلها في بعض مجلات « دار الهلال » .. من يتتبع باب « اسألوني » الذي تحرره في « المصور » اسبوعيا ، يدرك صدق نظرتها ، وذكاء قلبها ، وجرأتها في اطلاق قولة الحق تحدو بها الرغبة في الاصلاح دون سواها .

لقد طلعت علينا الاستاذ امينة منذ شهور برواية اجتماعية ناقدة انتزعتها « من صميم الحياة والواقع » كما وصفتها السلسلة .

والقصة تحكي حياة الشاب « مدحت » ، الذي عاش طفولة متزمتة ضيقة ، طلقت فيها امه فحرم منذ صغره من حنانها وحنان اية امرأة ، ولم ينعم بسوى عطف اب له طريقته القاسية في تربية ابنه الاوحد ... فلما مات هذا الاب الموسر ، وقد تخرج مدحت محاميا ناشئا واصاب النجح والتوفيق ، احس بالحرية وقد تم له الانعتاق من قيوده فانطلق من كل اسار .. وهنا يقع ، مع ضعف تجربته مع افراد الجنس الاخر ، بين احضان غانية لعوب تتمنع عليه حتى يندفع الى الزواج منها ، فتسلبه كل ما يملك على مر الايام وهو يجد في احضانها اللذة كل اللذة ، ويبدد بين يديها شخصيته ، وماله ، وكرامته ، الى ان ينتهي به الامر الى شر مآل.. ذلك انه يهم بقتلها ، ولكن تكتب لها النجاة ، ويحكم عليه بالسجن !

وينتهي مدحت الى ان يمسي عجوزا مهدما ، يبيع الكتب على شاطيء البحر في الاسكندرية ، حيث يتاح له ان يقص قصته جميعا على الكاتبة الراوية .. فتدفع مأساته الى الجمهور في كتاب تختار له عنوانا «اخر الطريق » الذي انتهى اليه هذا الرجل الضعيف ، فيفزع الناس ، ويمعنون ، ويعجبون ، ولعلهم ان يتجنبوا هذه الطريق الضالة التي سلكها

البطل او التي دفع الى سلوكها بفعل الظروف والتربية .

والذي استطعت فهمه من هذه المأساة ، ان المسؤول عنها الاب الذي لم يحسن تربية ابنه ، فحرمه على الصغر من حنان المراة ـ الام ، مما جعله يستميء حنان اول امراة صادفها وهو شاب ، وكانت على ذكاء ودهاء ، فاذلته ذلك الاذلال كله .

على ان هذا الهوان ، الذي وجدناه في البطل ـ الرجل ، لا يكاد يستقيم مع الواقع لشدة غرابته وفرط تطرفه !

ان رجلا ما لا احسبه يستطيب هذه الحياة في احضان هذه المراة . هي راقصة ، وبوسعه ان ينال منها وطره وزيادة من غير زواج ، لاسيما وانه كان ـ منذ تعرفت اليه الراقصة ـ على وجاهة ونفوذ تستجيب لهما اشد الغانيات تمنعا وتأبيا وعصيانا ، فاذا تزوجها ـ فرضنا جدلا ـ فهل يجد في احضانها اللذة الدائمة ؟ انعهد في الرجل ملولا سرعان ما يعاف الحب متى ارتوت نفسه وانفثاث غلمته .. فما بال مدحت يظل جوارها ، او وراءها ، على مر السنين وهي تدفعه في كل حين الى بيع قطعة ارض مما يملك او بيت او عقار ؟! وهو في كل ذلك راض سعيد مستطيب هوان النفس !

ان اشد ما اعجبني في القصة تلك الحياة الطفولية التي صورتها لنا المؤلفة عن الاسرة الصغيرة الموسرة : زوجة شابة جميلة لا تلقى من زوجها الا كل قساوة بسبب حبها السابق قبل الزواج لابن عمها .. وطفل صغير هو قرة عين امه .. واب لا يكاد يلتفت الى زوجه الا في السانحات القليلة ، مفضلا الجلوس مع صحبه في جانب من داره الباذخة منفصل عن الجانب الاخر المخصص للحريم .

ان تصوير الكاتبة لهذه المرحلة الاولية من حياة البطل في بضعة الفصول الاولى قد بلغ غاية الروعة ، وهو غني بالصدق الروائي والكمال الفني. وان هذا هو ـ فيما يخيل الي ـ المجال الحقيقي للاستاذة امينة. وقد تجلى ذلك في تصويرها عذابات الام الشابة في حياتها . الزوجية القاسية . ان الكاتبة تبرع في معالجة الجوانب النسائية في الادب ، وهذا ما تبدى بشكل واضح وقوي في قصتها السابقة : « الجامحة ».

بيد انها عندما جنحت الى تصوير الخلجات النفسية والصبوات العاطفية للرجل .. ند عنها الابداع ، واصاب فنها السامي ـ فيما يبدو لي ـ هيض وانتكاس مهما نظم في « آخر الطريق » من آيات المديح والثناء .

ان « رجل » هذه القصة لا يعدو ان يكون « مسخا » للرجل الذي نعرف نحن ابناء جنسه ، قد اعوزه الصدق الروائي حتى لينكره كل رجل يقرؤه . ان اي رجل يرى المراة ـ المراة الغانية المحترفة ـ تريد اذلاله ، فانه ينتفض عليها ولا يصبر طوال سنوات ننتهي به الى الفقر المدقع بعد غنى ، والى ان يطرد من مهنته كمحام ناجح شهير ، والى ان يصبح عالة على هذه الزوجة الغانية المعشوقة يعيش في بيتها كالخادم ، ويرى بام عينيه عشاقها الجدد يترددون على بيته كل ليلة فينالون مآربهم امام ناظريه !!

ان انتقاضة هذا «الرجل» قد جاءت متأخرة جدا عما ينبغي ان يثور في عروق اي من الرجال . وما ذاك الا لان الاستاذة امينة السعيد ما كان لها ان تسبر اغوار الرجل ، من قوة فيه وعزة ونخوة .. على حين انقاد لها سبر اغوار المراة بما يستقر في قرارتها من عواطف الحنان والحب والالم والسعادة والتمرد وسواها .

حلب — فاضل السباعي

دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

الابحاث الاسلامية

ثورة الاسلام
الاسلام نظام انساني
الاسلام انطلاق لا جمود
الامام الصادق
الاتجاهات الحديثة في الاسلام

المجموعة الفكرية

رينيه ديكارت
هنري برجسون (جزءان)
الوجوديه مذهب انساني
الذباب
الانسان فرد لا جماعة
الاشتركية بين الخيال والعلم
وجودية ووجوديون
علم النفس في حياتنا الحديثة
المؤسسات الاقتصادية وعلاقتها بالرفاه الانساني
فجر الحضارة في الشرق الادنى
دراسات في الادب العربي
الدنيا تتحدث عن نفسها
ارنست همنغواي (دراسة)
مشكلات قومية
ازمة الانسان الحديث
شعراء عباسيون

المجموعة القصصية

المصباح الازرق
ليلنا خمر
راقصة على الزجاج
حنين الارض
خمر الشباب
بنت الجيران
لولا القدر
دعني اعترف
عين لاتنام
ثمن الهيرويين
القبلة المحرمة
واهيفاء ..!
ثريا الامبراطورة الحزينة

المجموعة السياسية

الدولة الاتحادية
العرب والاستعمار
انا عائد من اسرائيل
الدستور في لبنان

المطولات

شرح نهج البلاغة للامام علي
الاغاني لابي الفرج الاصبهاني
مجمع البيان في تفسير القرآن
مقدمة ابن خلدون
تاريخ اليعقوبي
عيون الانباء في طبقات الاطباء
معجم متن اللغة (موسوعة كبرى)